«مكارم الأخلاق» في الجاهلية والإسلام
دراسة دلاليّة

د.علي سالمي

الجامعة الرضوية للعلوم الإسلامية

High morals in pre-Islamic and Islam era:
Semantic study

Dr Ali Salemi

Rathawi University for Islamic Sciences

ملخص البحث

تحمل اللغة العربية بطبيعتها طاقات هائلة من المعاني، وأنها تتطوّر عبر مستجدّات الزمن وأحداثه، فتأخذ أبعادًا مختلفة من البيئة الزمنية والمكانية فتضفي على مفرداتها الإيحائية والدلالات الهامشية، وتُحوّلها عن منظومة مبدئيّة وضعها اللغوي إلى فضاء رحب من المعاني؛ إذ يُدلّ سياقُ الكلام وقرائنه المختلفة، ومعرفة أضداد مداليل مفرداته المعجمية القارئَ على دلالات شتّى من مفردة واحدة على الصعيد الدلالي اللغوي، والدراسة التي بين أيدينا تعدّ محاولة لتأصيل الفكر اللغوي لفهم الدلالات المتعدّدة لـ «مكارم الأخلاق» في الجاهلية والإسلام نظمًا ونثرًا؛ إذ إنّها تناولت اللفظ من الناحية اللغوية، ومن ثَمَّ قامت باستيعاب مفاهيمها الهامشية المستنبطة عبر محوري المجاورة والمبادلة والقرائن المحفوفة بالنصوص؛ إذ يتحقّق ذلك استعانة بالمباني الدلالية. يدرس موضوعها على وفق المنهج الوصفي التحليلي بتناول نماذج من النصوص والشواهد تحليلًا دلاليًّا لغويًّا لكشف اللثام عن دلالات «مكارم الأخلاق»، وإزاحة ما يعتورها أحيانًا من الضَّبابية في دلالاتها.

وأخيرًا يبدو أنّ كلمة «مكارم الأخلاق» شهدت بعض التطوّر في بعدها الدلالي عبر الجاهلية والإسلام، وقد ضمّت في طيّها دلالات المفاهيم الأربعة: المفهوم المعجمي الواسع والمفهوم الضيق والمفهوم الإمكاني والمفهوم الواقعي، وتبيّن خلال تحليل الشواهد المختلفة بأنّ ثمة دلالات لمكارم الأخلاق تنصّ على سجايا محمودة تشترك في الجاهلية والإسلام معًا، مثل: الكرم، وإكرام الجار، وتجشّم المصاعب، والحلم والشجاعة والعدالة والمروءة والغيرة، وهناك مفاهيم ضيقة تتعلّق بالجاهلية من دون الإسلام كشرب الخمر والحمية الجاهلية في الثأر؛وأخيرا اتّضح أنّ دلالات المفهوم المعجمي الواسع أكثر المفاهيم استعمالًا والمفهوم الضيق أقلها جميعًا في العصرين.

الكلمات المفتاحية: مكارم الأخلاق، الجاهلية، الإسلام. الدلالة.

Abstract

The Arabic language, by its nature, carries huge energies of meanings. It develops through the developments of time and its events, taking different dimensions from the temporal and spatial environment, adding to its suggestive vocabulary and marginal connotations, and transforming its linguistic situation from an initial system into a broad space of meanings. The context of speech with its various readings, and the knowledge of the opposites of the meanings of its lexical vocabulary indicates to the reader the various connotations of a single term at the semantic-linguistic level. The study in our hands is an attempt to root linguistic thought in order to understand the multiple connotations of “high morals” in pre-Islamic and Islamic systems and prose. It dealt with the utterance from the linguistic point of view, and then it absorbed its marginal concepts that were derived through the axes of proximity, exchange, and contextual evidence. This is achieved by the use of semantic buildings. The subject is studied according to the descriptive analytical method by dealing with samples of texts and evidence in a semantic and linguistic analysis in order to uncover the connotations of “high morals” and to remove the ambiguity sometimes associated with them in their connotations. Finally, it seems that the word "hgih morals" has witnessed some development in its semantic dimension through pre-islam and Islam, and it included the semantics of the four concepts: The broad lexical concept, the narrow concept, the possible concept, and the realistic concept. Through the analysis of the various evidence, it became clear that there are indications of good morals that stipulate praiseworthy traits that are common in before and after Islam such as: generosity, honouring one's neighbour, enduring hardships, forbearance, courage, justice, and jealousy. There are narrow concepts related to pre-Islam, such as drinking alcohol and revenge.

Keywords: high morals, pre-Islam, Islam, semantics.

١. المقدمة:-

للألفاظ فضل كبير في اللغة فهي تحمل المعاني، وبرصفها يتحقّق السياق اللغوي فهي تؤدي دورًا مهمًّا في الإيحائية والقضايا النفسية المتعلّقة بأصواتها وما تحمل من دلالات معنوية بمجرد أدائها، فهي تُدرس كظاهرة دلالية بارزة في النص؛ لأنها تتبلّور في النص بمنزلة سيرورات دلالية تدعو إلى التفكير وإمعان النظر فيها.

ومن هذا المسار يمكن التأكيد على أنّ الألفاظ تعدّ من الأنساق الدلالية الخصبة التي يمكن أن نعوّل عليها في فهم دلالات أصواتها وكيفية استعمالها داخل النصّ؛ إذ تحمل في طيّها بعدًا دلاليًّا قابلا للتحليل، ولذلك أصبحت الألفاظ طريقًا واضحًا لمن يريد أن يغور في طبقات النصّ؛ إذ إنها تتوارد كالسلسلة لتفرض دورها في إيصال الرسالة المطلوبة، ومن هنا يتبيّن وجه ارتباطها بالنظرية الدلاليّة؛ لأنها حلّت محل أداة البحث عن كل دلالة من دلالات الألفاظ المركزية والهامشية المستوحاة من السياق وموقع المفردة على محور التجاور، فهي كفيلة لتحليل دورها الدلالي داخل النص.

ولا شكّ أن المفردات لا تستعمل عبثًا ومن دون عناية بتراكيبها اللفظية والصرفية والمعنوية؛ لأن المخاطب يخطر في باله معنى من المعاني ثم يختار له من الألفاظ ما يناسب فحواه ومخاطَبه وظرفه الزمني، وبعد ذلك يحدّد لها الأسلوب المناسب على وفق مقتضى الحال فيصبّها في القالب اللغوي لتشكّل نصًّا متناميًا قابلا للتحليل والتأويل.

تظهر أهمية البحث وضرورته من التركيز على الدور الدلالي في تفسير

المفاهيم المستنبطة من لفظ «مكارم الأخلاق» عبر العصور المختلفة وكشف الظواهر اللغوية الغائبة في النص؛ إذ إنّ الدراسة تحاول التركيز على الاستعمالات المتعدّدة التي وردت في المنظوم والمنثور من كلام الأدباء والبلغاء في الجاهلية والإسلام، وتوظيف الأدوات الدلالية ودورها في تبيين المفاهيم المستنبطة من لفظ «مكارم الأخلاق».

ومن هذا المنطلق تهدف الدراسة إلى تبيين المفاهيم المكنونة في «مكارم الأخلاق»ومترادفاتها والكشف عن دقائق معانيها، ودلالاتها من خلال أنساق لغوية استعانة بمحور المجاورة ومحور المبادلة أو الاختيار، للإفصاح عن دلالاتها الهامشية، وما تفرزه من الإيحائية لتفسير بعض السيرورات الدلالية عبر العلامات البارزة على محور المجاورة. إذ يقوم البحث بتفسير وتأويل ما صعب فهمه أحيانًا وكشف علاقات الدوال بمدلولاتها بالنسبة إلى استعمالات «مكارم الأخلاق» في الكلام؛ لكي يمهّد الأرضية لاستيعاب زواياها الدلالية الخفيّة.

أمّا بالنسبة للمنهج الذي اتّخذه البحث معيارًا فهو المنهج الوصفي التحليلي؛ إذ يتمّ استقراء لفظ «مكارم الأخلاق» واستعمالاتها في الجاهلية والإسلام نظمًا ونثرًا، وتحليل موضوعه على أساس دلاليٍّ وصولًا إلى ما نروم إليه في هدف البحث، وربما نستعين ببعض الشواهد والأدوات اللازمة في تبيين دلالاتها.

سابقة البحث

لا توجد دراسة مستقلة جادّة على الصعيد الدلالي، ولكن هناك دراسات ومقالات تطرقت إلى

الموضوع بصورة مقتضبة من دون تحليل مداليل مكارم الأخلاق وتبيين وجوه اختلافها في عصري الجاهلية والإسلام أدبيًّا نظمًا ونثرًا بل تمسكّت بالقرآن والأحاديث الشريفة غالبًا وفي نطاق محدود لا يعوّل عليه في فهم دلالات مكارم الأخلاق، هناك مقالتان بالفارسية: مقالة «معناشناسى واژة اخلاق در قرآن كريم»، للكاتبين: سهراب مروتى وسارا ساكى (١٣٩٠ش) وتختلف الدراسة عن مقالتنا في أمور أهمها، أوّلا: إنها تدرس موضوع الأخلاق عبر مصطلحي المفهوم والمنطوق أصوليًّا، ثانيا: أنها تناولت الحقول الدلالية اللغوية لمفهوم الأخلاق الإلهية في النص القرآني وتشير إلى مصاديقها بصورة مباشرة أو غير مباشرة.ثالثا:أن نواة المفاهيم الأخلاقية في القرآن تتمثّل في قوالب ألفاظ أصيلة منسجمة تمثّل الواقعية في مراده جلّ جلاله. وأيضًا مقالة «مكارم الأخلاق (پژوهش پيرامون روايت تتميم مكارم الاخلاق وروايات همانند)» لأصغر هادي، (١٣٨٥ش). وهذه الدراسة تختلف عن مقالتنا من جهات، أولا: ناقشت موضوع سند رواية تتميم مكارم الأخلاق عند الفريقين. ثانيا:درست المفردات الأخلاقية واحتمالاتها لكل فقرة من الرواية وبيّنت مفاهيمها ومصاديقها على صعيد فقه اللغة، والوجوه الأدبية. ثالثا: المقارنة بين دلالة رواية التتميم والروايات المتشابهة.

وأما أسئلة البحث فمن جملة الأسئلة الرئيسة التي تحاول الدراسة الإجابة عنها ما يأتي:

١. كيف تحمل مكارم الأخلاق ومترادفاتها دلالات معنوية مختلفة ؟

٢. بأي طريقة يتمكن علم الدلالة من تقديم حلول لكشف الدلالات الخفية الغائرة في استعمالات لفظ مكارم الأخلاق؟

٣. ما مداليل لفظ مكارم الأخلاق في النصوص الشعرية والنثرية في الجاهلية والإسلام؟

٢. الألفاظ وطبيعتها الدلالية:-

دراسة الألفاظ دلاليًّا تبيّن مدى علاقتها بالنص، وتظهر خفاياها وما ضمته من أسرار معنوية، وتلوّح بمعانيها الهامشية والثقافية التي تلقّاها الكاتب أو الشاعر من المكان والزمان والموروث الثقافي وما إلى ذلك، وللإلمام بهذا الجانب المهم لا محيص من البحث وراء كل ما يمهّد لنا الأرضية لتلقي أبعادها المعرفية خلال القرون الماضية، وعليه كما قال إبراهيم أنيس: «من المفروض أن تدرس المفردة من خلال سيرها التأريخي ومجالها اللغوي. تتطوّر دلالة العَلَم إلى لفظ عام ذي معنى كليّ، فمن «الإله» نشأ «التأله» ومن الشيطان نشأ «تشيطن»، ومن إبليس نشأت الأبلسة وأصبح لأمثال العلمين «حاتم ونيرون» دلالات كلية تستغل في لغات كثيرة» (أنيس، ١٩٨٤م، ص٣٧).

ولا شك أن الألفاظ في مسيرتها التأريخية تشهد تغيّرات ملموسة لا يمكن إنكارها، وهي ترجع إلى عوامل لغوية بحتة، أو عوامل ناشئة من المحيط ونفسية الإنسان التي تتصرف تصرفات خاصة تحيل المفردة عن معناها الحقيقي وتضيف إليها بعدًا عاطفيًّا منشؤها التجربة الشعورية للشخص فيهبها من روحه الشاعرة ما يناسبها من معنى هامشي، وعليه «فهناك العوامل الداخلية، وتتجلّى في الناحية التأريخية الاشتقاقية للألفاظ،كأنْ تقارن الكلمة

بنظائرها في الصورة والمعنى حتى يتسنّى إرجاعها إلى أصل معيّن تتفرع إلى عدة فروع في لغة واحدة أو أكثر من لغة وهذه الدراسة قديمة عند اللغويين، والعوامل الخارجية تتجلّى في الجوانب الاجتماعية والنفسية والمظاهر الإنسانية ذات الأثر البيّن في تغيّرها وانحرافها، والعاطفة التي تعطي بعض الألفاظ ظلالاً خاصة، وهي تختلف باختلاف الناس وتجاربهم في الحياة، الأصوات الطبيعية قد تتطوّر في دلالتها حتى تصبح معبّرة عن الدلالات الراقية المجردة في الذهن الإنساني» (المصدر نفسه ، ١٩٨٤م، ص٢٢).

ولما كانت الألفاظ تحمل دلالات مختلفة فيجب الوقوف عليها لدراستها بشكل موضوعيّ، وكي نستعين بها في معالجة غموضها وإيحائها وبنيتها.

كل كلمة تمتلك دلالات ثلاث:

أ) الدلالة اللفظية (الصوتية): وهي التي تستنبط من اللفظ (أصوات الكلمة الأصول)، وهي أقوى الدلالات.

فهي [دلالة] تستمدّ من طبيعة بعض الأصوات [مفهومها الدلالي]، فكلمة «تنضخ» تعبّر عن فوران السائل في قوّة وعنف، وهي إذا قورنت بنظيرتها «تنضح» التي تدلّ على تسرّب السائل في تؤدة، وبطء، والفضل في مثل هذا الفهم يرجع إلى إيثار صوت على آخر، أو مجموعة من الأصوات على الأخرى في الكلام المنطوق به.

ب) الدلالة الصناعية (الصرفية):

وهي المستنبطة من صيغة الكلمة، فهي نوع من الدلالة يُستمدّ كنهها من طريقة الصيغ وبنيتها،كما بين لفظتي (كذّاب وكاذب) فاستعمال

كلمة «كذّاب» يمدّ السامع بقدر من الدلالة لم يصل إليه أو يتصوّره لو أن المتكلم استعمل «كاذب»، فهي وإن كانت تحمل الدلالة على معنى الكذب كما في كلمة (كاذب) إلاّ أنها تتفوّق عليها بما تحمله من المبالغة التي تصدم المتلقي وتحيطه بجوّ نفسيّ مفعم.

ج) الدلالة المعنوية: وهي التي ينتقل الذهن بها من معنى الكلمة إلى معان أخرى.

مثال:(ضرب): دلالته اللفظية هي: دلالة الأصوات (ض ر ب) على (الضرب)، دلالته الصناعية هي: دلالة صيغة فَعَلَ على الفعل وزمنه، دلالته المعنوية هي: دلالة الضرب من الفاعل على المفعول به بأداة الضرب (انظر: الخماش، ١٤٢٨ق، ص١٨. أنيس، ١٩٨٤م، صص٤٦-٤٧).

ويبدو أن إبراهيم أنيس قد عبر عن الدلالة المعنوية عند الخماش بالدلالة المعجمية والاجتماعية؛ إذ إنه يرى أنّ المفردة تحوي دلالة معجمية، وفي الوقت نفسه يحفّها شيء من الدلالة الاجتماعية المستوحاة من المحيط، فقد صرّح بذلك من خلال النماذج التي طرحها أثناء حديثه عنها.

وعليه يبدو أن كلمة «الأمّ» علاوة على مدلولها اللغوي المعجمي تحمل شحنة عاطفية ودلالة اجتماعية مستلة من صميم المجتمع الذي يعيش فيه الفرد.

إذ إنّ «الأمّ» تملك خصائص فريدة عند المجتمع البشري من الحبّ والحنان وأحاسيس الأمومة، والتضحية من أجل أطفالها وغيرها من المدلولات الاجتماعية، فبمجرّد ذكر اللفظة تتبادر المعاني المستوحاة منها فضلا عن المدلول المعجمي لها.

إذ قال عن الدلالة المعجمية والاجتماعية: ويكسب أبناء اللغة كل هذه الدلالات من خلال التلقي والمشافهة، ويتطلّب هذا الكسب زمنًا ليس بالقصير، أما الدلالة الاجتماعية للكلمات فتظلّ تحتلّ بؤرة الشعور؛ لأنها الهدف الأساس في كل كلام(انظر أنيس، ١٩٨٤م، ص٤٩).

وأضاف أنيس إلى الدلالات الثلاث المذكورة دلالة رابعة سمّاها بالدلالة النحوية، وهي تشرف على نسق الكلام والقواعد النحوية التي يجب مراعاتها في الكتابة، فالنظام اللغوي إذا أصابه عوار ولحن فسيصبح مبهمًا مستوحشًا، لا يمتّ بصلة إلى المشهد الذي يريد الكاتب أن يبدي فكرته عنه؛ لأن الكلام الصحيح في الحقيقة عبارة عن مجموعة من الأفكار المتسلسلة المنصبّة في قالبه المتمظهر، فإذا انحلّت عقدة الكلام انسلخت الأفكار عن موطنها.

إذ صرح بذلك: «يحتمّ نظام الجملة العربية أو هندستها ترتيبًا خاصًّا لو اختلّ أصبح من العسير أن يفهم المراد منها» (المصدر نفسه، ص٤٨).

لا شك أن ثمة علاقات نحوية بين مفردات تشكّل مفهومًا لا يدرك في نفسه إذا أُخذت كلمة وحدها بنظر الاعتبار، فلا يُعتنى بمعنى المفردة إلى نسقها النحوي، ومن هذا المنطلق يرى أرسطو دلالة الكلمة «مشروطة بنسقها النحوي، فالكلمة مصطلح هاجر من المنطق إلى النحو فأصبحت تدلّ على الفعل والأداة على الحرف» (يوسف أحمد، ٢٠٠٥م، صص ٢٢-٢٣).

كل هذه الدلالات لها ميزات خاصة نتّخذها وسيلة في دراسة لفظ «مكارم الأخلاق»، وعلى وفقها

سنفسّر الظواهر الدلالية.

وجدير بالذكر أن لألفاظ المعاني من الناحية الدلالية عند أصحاب النظريات الحديثة اختلاف في الرؤية، وقد ظهرت الخلافات ناشئة عن صعوبة إدراك المفردة وحدها، وغموض مفهومها خارج الإطار اللغوي، وكذلك عند من يعتقد بنسبية المعاني لو أخذت ألفاظها على حدة خارجة عن أنساقها اللغوية، ومن هذا المنطلق هناك عدة آراء منها: «رأي أصحاب النظريات السياقية: الكلمات لا معنى لها على الإطلاق خارج مكانها في النظم والسياق.

رأى ستيفن أولمان الناقد الإنكليزي: هناك طبيعتان دلاليتان للكلمات:

أوّلا: في الكلام: على أنها غير مستقلة دلاليًّا؛ لأنّ جزءًا من المعنى يستفاد من السياق.

ثانيا: في النظام اللغوي: الكلمات في المعجم الذي يحتفظ به كل فرد في ذاكرته هي وحدات لكل منها معنى مركزي ومعان جانبية وأخرى هامشية» (الخماش، ١٤٢٨هـ، ص٤٠).

ككلمة «الخال» فالمعنى المركزي الذي تنص عليه اللغة لكلمة الخال، مثلا، هو شامة في البدن، ولها عدة معان هامشية يستوحيها الإنسان مثل الحسن، جمال الحبيب، السوداوية، المسك، وغيرها فكل ذلك نابع من صلة الفرد بثقافة المجتمع وبيئته التي ترعرع فيها واستلهم منها المعاني الهامشية.

فالدلالة المركزية، هي الدلالة المعجمية التي هي واضحة عند أبناء اللغة، والدلالة الهامشية، هي ظلال الكلمات التي تختلف باختلاف تجارب الناس ومعرفتهم بها.

وكما أن المخزون الثقافي يؤثر في كيفية إدراك الدلالات الهامشية، كذلك شكل الصيغة وتركيبتها قد تساعد إجمالًا على استيحاء المعاني الضمنية فضلا عن فهم خصائصها البنيوية، وعليه «فإن استيحاء الدلالة غير مقصور على حروف اللفظ وأصواته، بل قد تتدخل الصيغة أو بنية اللفظ في هذا الاستيحاء فمجرد النطق بألفاظ مرتجلة مثل: «سليمُ، ملافعُ» يوحي إلى الذهن أنها أوصاف أو أسماء، في حين أنّ صيغًا أخرى مثل: «مَلَعَ» توحي إلى الذهن أنها أفعال» (أنيس، ١٩٨٤م، ص٨٩).

ومن يولي اهتمامًا بالنصوص عند الأمم المختلفة وجد بينها من الجهات الثقافية والسلوكية بونًا شاسعًا، وهذا الاختلاف ناشئ عن الاتجاه التربوي والمعرفي لدى كل منها، وذلك يؤدي إلى ظهور ألفاظ عندهم تنمّ على الفكرة لديهم، وتوحي بما يحملون من عقيدة. فظلال الكلمات من جانب تبيّن فكرة مختصّة بثقافة ما، ومن جانب آخر تستدعي كلمات تشكّل محور المجاورة التي يدرسها السيميائيون؛ لأهميتها الفائقة في استكناه حقيقة المدلول، بسبب أنّ كل لفظة هي في الحقيقة تعدّ علامة، ومن هذا المنطلق يرى بنفينيست من جملة موارد الأنظمة اللغوية التي يجب أن تدرس هي الألفاظ، فيقول: «فكون اللغة نظامًا سيميائيًّا هو أن وحداتها مستقلة تمثّل كل واحدة منها علامة (انظر: الأحمر نقلا عن إميل بنفينيست، ٢٠١٠م، ص٧١).

ويبدو أن تعدّد الدلالات للعلامة الواحدة يرجع إلى طبيعة اللغة ومرونتها، ومدى تطوّرها خارج

الإطار المعجمي، إذ تأخذ غير قليل من المعاني الهامشية والايحائية من المكان الذي استعملت فيه، والزمان أيضًا الذي تلفظ أبناء اللغة به.

فغير قليل من الاختلاف بين أصحاب الرؤى في القضايا الحسّاسة من السياسية والثقافية والاجتماعية منشؤه نسبية المدلولات عند استعمال الدوال المحددّة، وتباين أفكارهم في ذلك المجال، ومن هذا المنطلق يقول إبراهيم أنيس: «وإنّ قدرًا غير قليل من أحكام النقد الأدبي مرجعها إلى تلك الدلالة الهامشية التي تختلف باختلاف الأفراد في البيئة الواحدة، ويعظم اختلافها باختلاف الناس في البيئات المتباينة» (أنيس، ١٩٨٤م، ص١٢٠).

فليس «الغراب» في خانتي مانسيسك التابعة لروسية كالغراب الذي عند العرب؛ فهو عند العرب رمز للشؤم والنحوسة، ولكن أهالي خانتي مانسيسك يرون تقديس الغراب الأسود كرمز من رموز العبادة إذ تحتفل هذه الشعوب إلى الآن بيوم الغراب، وعلى وفق الأسطورة تنعش الأنهار بقدوم الغربان السود إلى الشمال، ويصبح صيد الحيوانات وافرًا عندهم.

ففهم الدلالة المركزية تتضمنّها المعاجم اللغوية، وأما الدلالة الهامشية فيؤثر في استيحائها عوامل عديدة لا تنحصر بالمستوى العلمي لدى كل فرد فحسب، بل يرجع مآله إلى مدى مخزونه وتجربته للمحيط الذي تعايش معه، وأخذ منه غير قليل من الثقافة والسلوك والمعرفة.

ومهما يكن من أمر فالدلالات الهامشية يتغيّر مستوى إدراكها من شخص إلى آخر بمقدار ما لديه من خبرات ومعلومات عامة ومدارك

دقيقة، ولا تبقى منحازة عن التجربة الشخصية حينما يتلقاها عبر السماع وعليه «فإن الدلالة الهامشية أو ما يسمّى بظلال الكلمة لا تقتصر على تجارب الأحداث المختلفة وفرص السماع ،بل إن الرقيّ العقلي، وما يكتسّبه المرء من علم ومعرفة، وما يتاح له من فرص ثقافية،كل هذا يترك أثرا قويّا في دلالته، ويصبغها بصبغة متميّزة، وهل «الملكيّة» في ذهن رجل أميّ من أصحاب الأملاك أو الضياع، هي «الملكية» التي كانت في ذهن كامل مرسي حين ألف كتابه المشهور وجعل عنوانه «الملكية»؟» (انظر المصدر نفسه: ص١١٣).

ويظهر ممّا سبق أن اللفظة لها صبغة ذاتية يفرضها المؤلف على وفق طريقة تفكيره، ويهبها من مشاعره قوة في الإيحاء لا يستشعرها الآخرون الذين لا صلة ولا معرفة لهم بشخصية المؤلف وميزاته النفسية، فلا تُدرك حقيقة المفردة وما يعمّها من دلالات ثانوية إلا بعد استيعاب ما أفرز المؤلف عليها من فكرة ومنحى سلوكه الفردي.

ومن هنا يتضّح أن اللفظة تحمل في طيّها مشاعر ناطقها كما أنها تحكي رؤيته للكون بما أنه كائن ذو عقل حسّاس.

٣.المفهوم المعجمي:-

إنّ اللفظة، كما مرّ سابقًا، لها مدلول لغوي وفي الوقت نفسه لها مدلول نفسي، وهي ثمرة النطق؛ لكي تحمل مفهومًا بالمواضعة غالبًا، وبتعبير آخر«المفهوم: محتوى فكري ذو طبيعة لغوية سيكلوجية (نفسية) يصاحب الكلمة المستخدمة علامة، فهو يتضمّن:

أولا: مفهومًا منطقيًّا متمثّلًا في نوع المشار إليه وجنسه وصفاته المميّزة.

ثانيا: ظلال الشكل والمادة (الخماش، ١٤٢٨ق، ص٤١).

فمثلا العلامة اللغوية (الشمس) تستدعي ظاهرة فلكية معينّة، مدورة مشعّة يحوطها فضاء رحب فتملؤه نورا وحرارة، وقد يتعلّق بها خصائص العلو والرفعة والجمال، ويمكن تقسيم المفهوم إلى الأنواع الآتية:

٣. ١. المفهوم المعجمي الواسع:-

«وهو مفهوم يشترك فيه معظم أهل اللغة فيدخل فيه المفهوم المنطقي والشكل وبعض الظِّلال العاطفية والثقافية» (انظر المصدر نفسه: ص٤١). فمثلا كلمة (البحر) تجعلنا نفكّر في مساحة كبيرة زاخرة بالمياه، وتمتاز بزرقتها وأمواجها، كما أنها تستدعي أيضًا رؤى عاطفية تتّسم بمكارم الأخلاق كالعطاء والكرم والسعة والعظمة. وعليه قول الفرزدق:

له راحَتا كفَّينِ في راحتَيْهِما
من البحرِ فيضٌ لا يُنَهْهُ زاخرُهُ
(الفرزدق، ١٩٨٧م:٢٤٧).

فالشاعر لا يريد من البحر ذلك الشيء في الواقع الخارجي فحسب بل هناك مفاهيم هامشية وظلال عاطفية يدركها المتلقي إذا ما أخذ سياق الشعر بنظر الاعتبار؛ إذ إنه يدلّ على كرم الممدوح وفضله الجسيم.

٣. ٢. المفهوم الضيق:-

يتمثّل المفهوم الضيق برؤية فردية مكتسّبة ولا يشركه الآخرين في ما يبدي من لمسات معرفية في أثره الفني، فهو قد يتوصّل إلى نقطة لا يسع الشخص الآخر معرفتها إلا من

خلال المعايشة والتركيز على الجوانب العلاماتية التي تهديه إلى استقصاء تلك الدلالات الخاصة. «فهو مفهوم مستمدّ من خبرات وتجارب خاصة بفرد معيّن لا يشاركه فيها قطاع كبير من الناس» (انظر: الخماش، ١٤٢٨هـ، ص٤٢).

فمثلا كلمة (العصا) تستدعي شحنة عاطفية ومفهومًا ساميًا يتعلّق بمكارم الأخلاق لشخص محدّد يساعد الضعفاء فيمسك بأياديهم، ويعينهم في الشدائد والملمّات، وكأنه بمنزلة العصا في يد الطاعن في السنّ، فقلّما يشاركه في هذه التجربة شخص لم يعرف عن دلالتها الضيقة شيئًا. كقول امرئ القيس:

قُولا لِدُودَانَ عَبِيدِ العَصَا
مَا غَرّكُمْ بِالأَسَدِ البَاسِلِ

(امرؤالقيس، ١٤٢٥ هـ : ٢٠٠٤ م: ص١٤١)

فهنا الشاعر يهجو قوم الأسد، ويعيرهم بقوله: «عبيد العصا» إشارة إلى قضية تأريخية معيّنة تتعلّق ببني أسد، ولا يظهر معناها إلا بتفسير الموقف الخاص الذي عاشه بنو أسد مع الملك الغاضب عليهم.

٣ .٣. المفهوم الإمكاني:-

يبدو أن المفهوم الإمكاني هو المعاني المستوحاة من العلامة المحدّدة ضمن السياق اللغوي ممّا تمهّد للقارئ استكناه معان ضمنية ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالتجربة الشعرية أو النثرية وبتأثرات شخصية للشاعر أو الكاتب من الواقع الخارجي؛ لأن السياق هو الذي يهب الكلمة معناها الدقيق، وبالكلام يتضّح فحواها العميق.

وعليه فالمفهوم الإمكاني «مؤلّف من المعاني والأفكار المتعلّقة

بعلامة معينّة ومخزونة في الذاكرة كجزء من النظام اللغوي، هذه الأفكار هي المعاني الممكنة متى ما وجدت السياقات التي تستدعيها» (انظر الخماش، ١٤٢٨ هـ: ص٤٢).

مثل: كلمة «النسيم» فإنها إن وضعت في سياق المدح لشخص خلوق، فتدلّ بمفهومها الإمكاني على الطيب، والخلق الحسن، واللين والرقة. وعليه قول ابن الرومي:

تَلقاهُ إنْ ظارفوهُ أظرفَ مِنْ
رَوْحِ النَّسيمِ إذا نَسَما

(ابن الرومي، ٢٠٠٢م: ج٣، ص٢٤٢).

فالمتلقي يستوحي من لفظ «النسيم» في البيت معان مختلفة كالرقة ودماثة الخلق وخفّة الظّل، وما إلى ذلك من المفاهيم الهامشية التي تفرزها العلامة المعينّة في النظام اللغوي .

٣ .٤. المفهوم الواقعي:-

وأما المفهوم الواقعي فهو الذي يفهم منه حقيقة معنى المدلول، وله مرجع محدّد في الخارج من دون أن تؤخذ تلك المعاني الهامشية بنظر الاعتبار، ويمثّل نواة المعنى وأساس المفهوم لكل لغة من اللغات؛ لأن عليه المعوّل في معرفة الحقل المعجمي.

وعبر عنه الخماش: «بأنه المعاني المرتبطة بعلامة معيّنة في سياق محدّد له مكان معيّن وزمان معيّن ومرتبط بظروف محدّدة. (انظر: المصدر نفسه، ١٤٢٨هـ، ص٤٢).

فكلمة «القمقم» لا تستدعي في دلالتها مفاهيم إلّا ذلك الشيء الذي يوضع على الفحم وتسكب القهوة منه في الفنجان، ولا تستدعي الأفكار الثقافية والنفسية المتعلّقة بمكارم الأخلاق كالكرم والأصالة والعروبة.

كما يقول الأعشى الكبير:

كأنّ احتدامَ الجوفِ في حَمِي شدّهِ
وما بعده من شدِّهِ غليُ قُمْقُمِ

(الأعشى،د.ت: ص ١٢١).

يلاحظ جيّدًا بأن لفظة «القمقم» في البيت خالية من الأفكار الثقافية والنفسية المتعلّقة بمكارم الأخلاق التي أشرنا إليها، فهي تنص على المفهوم الواقعي في اللغة، وهو الشيء المعروف بغض النظر عن الدلالات الهامشية التي تستطيع الكلمة أن تحملها لو وقعت في السياق اللغوي.

وهذه الأنواع المذكورة لها الدور الكبير في معرفة دلالات الألفاظ، وسنركزّ عليها في دراسة «مكارم الأخلاق»، ونسلّط الضوء على شواهدها إن شاء الله.

٥. مكارم الأخلاق لغة واصطلاحا:-

لفظة «الأخلاق» مفردها خُلُق: مجموعة صفات نفسية وأعمال الإنسان التي توصف بالحُسْن أو القُبْح. ولها مستويات مختلفة تتجلّى في أخلاق اجتماعيّة: عادات أو قيم اجتماعية تختلف باختلاف الظروف. تدنّي الأخلاق: انحطاطها، جريمة أخلاقيّة: جريمة تَمَسّ العرض والشرف، .. دماثة الأخلاق: سهولة الطبع ولينه، شرطة الأخلاق: شرطة الآداب، مكارم الأخلاق: الأخلاق الحميدة.(انظر: أحمد مختار، ٢٠٠٨م: ج١، ص٦٨٨).

وعلم الأخلاق: أحد أقسام الفلسفة وهو علم نظريّ يحدِّد مبادئ عمل الإنسان في العالم، وغرضه تحديد الغاية العليا للإنسان، أو هو علم بالفضائل وكيفية التحلّي بها، والرذائل وكيفيّة تجنّبها (المصدر نفسه، ٢٠٠٨م:

ج١، ص٦٨٨).

وفي تاج العروس: «الخُلُقُ، بالضَّمِّ، وبضَمَّتَيْنِ: السَّجيَّةُ، وهُو مَا خُلِقَ عليهِ من الطّبْع، وَمِنْه حَدِيثُ عائِشَةَ: كانَ خُلُقُه القُرآنَ: أَي كانَ مُتَمَسِّكًا بِهِ، وبِآدابِهِ وأَوامِرِه ونَواهِيه، وَمَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ من المَكارِم والمَحاسِنِ والألطافِ.

وقالَ ابنُ الأعْرابِيِّ: الخُلُقُ: المُرُوءةُ، والخُلُقُ: الدِّينُ، وفِي التَّنْزِيل: ﴿وإنَّكَ لعَلَى خُلُقٍ عَظِيم﴾، لَا يُكَسرُ على غَيْرِ ذلِك، وَفِي الحَدِيثِ: لَيْسَ شَيءٌ فِي المِيزانِ أَثْقلُ من حُسْنِ الخُلُقِ، وحَقِيقَتُه أَنَّه لصُورَةِ الإنْسانِ الباطِنَةِ، وَهِي نَفْسُه وأَوْصافُها، ومعانِيها المُخْتَصَّة بهَا بمَنْزِلَةِ الخَلْقِ لصُورَتِه الظاهِرَةِ وأَوْصافِها ومَعانِيها، وَلَهُمَا أوصافٌ حَسَنَةٌ وقَبِيحَةٌ، .. وَلِهَذَا تَكَررتِ الأَحادِيثُ فِي مَدْح حُسْنِ الخُلُقِ فِي غَيْرِ مَوْضع..، وكذلِكَ جاءَت فِي ذَمِّ سُوءَ الخُلُقِ أَيْضًا أحادِيثُ كَثِيرَة» (انظر: الزبيدي، (د.ت): ج ٢٥، صص٢٥٧-٢٥٨).

ويظهر ممّا سبق أنّ مفهوم الأخلاق عند الزبيدي لا يتوقف على معنى محدّد أو خصوصية ملحوظة من السجايا البشرية بل يتوسّع في معناها من خلال استعمالاتها في اللغة وفهمه من سياق الآية الكريمة أو الروايات الشريفة فإنها تتميّز بمفهومها المعجمي الواسع أما ترى قوله إذ ينقل عن ابن الأعرابي: بأن الخلق هو الدين.

ويلاحظ أيضًا أنّ طبيعة الأخلاق من خلال سلوك الإنسان وطرائق تعامله مع الآخرين من المنظور الإلهي كما يراها الحازمي تنقسم إلى قسمين: «محمودة ومذمومة: فالمحمودة: هي كل صفة حسنة بنيّة

حسنة وفق منهج الله تعالى، والمذمومة: كل صفة على غير منهج الله تعالى» (الحازمي، ١٤٢٤هـ: ص ٥٠٢).

يُرجع الحازمي مناط الصفات البشرية إلى نواة الأفعال وسلوكها الإنساني وهي النيّة، فإن كانت ممدوحة ترضي الله سبحانه وموافقة لطريقته وإرشاده فتعدّ محمودة والسير على خلاف منهجه اللاحبّ تجعلها مذمومة تأباها الفطرة الإلهية.

و«الكَرَمَ» الْكَافُ وَالرَّاءُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ صَحِيحٌ لَهُ بَابَانِ: أَحَدُهُمَا شَرَفٌ فِي الشَّيْءِ فِي نَفْسِهِ أَوْ شَرَفٌ فِي خُلُقٍ مِنَ الْأَخْلَاقِ. يُقَالُ: رَجُلٌ كَرِيمٌ، وَفَرَسٌ كَرِيمٌ، وَنَبَاتٌ كَرِيمٌ. وَأَكْرَمَ الرَّجُلُ، إِذَا أَتَى بِأَوْلَادٍ كِرَامٍ. وَاسْتَكْرَمَ: اتَّخَذَ عِلْقًا كَرِيمًا. وَكَرُمَ السَّحَابُ: أَتَى بِالْغَيْثِ. وَأَرْضٌ مَكْرُمَةٌ لِلنَّبَاتِ، إِذَا كَانَتْ جَيِّدَةَ النَّبَاتِ. وَالْكَرَمُ فِي الْخُلْقِ، يُقَالُ: هُوَ الصَّفْحُ عَنْ ذَنْبِ الْمُذْنِبِ. قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مُسْلِمِ بْنِ قُتَيْبَةَ: الْكَرِيمُ: الصَّفُوحُ. وَاللهُ تَعَالَى هُوَ الْكَرِيمُ الصَّفُوحُ عَنْ ذُنُوبِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (ابن فارس، ١٩٧٩م: ج٥، ص١٧١-١٧٢).

ويظهر ممّا طرحه ابن فارس أنّ الكرم أيضًا لا يتوقف على مفهوم ضيق بل فيه تمدّد واتساع؛ إذ يقول الكريم هو الصفوح، وهو بأصله اللغوي يتضمّن مفهوم الشرف الذاتي والشرف المعنوي الذي يتجلّى في الشمائل والأخلاق اكتسابًا، كما أنها تتمتّع بالظلال العاطفي المخيّم عليها ودلالات هامشية مختلفة يستنبط منها إذا ما وقعت في سياقها المحدّد من النصوص شعرًا ونثرًا.

ومكارم الأخلاق اصطلاحًا هي مجموعة من السجايا والعادات والسلوكيات التي تنبئ عن صفاتها

الحسنة وعقائلها الشريفة التي تقرّ بها النفوس المهذبة والعقول النيرة، وتقوم على أصول معروفة.

ويكفينا معرفة أن نلقي نظرة سريعة على الأمثال التي وردت في مكارم الأخلاق لنرى مدى عناية الكتّاب القدامى بها؛ إذ جعل ابن سلام أبوابًا لها على وفق ما يأتي: باب المثل في الحلم والصبر على كظم الغيظ، وباب الإغضاء على المكروه واحتمال الأذى، وباب رتق الفتوق وإطفاء النائرة، وباب العفو عند المقدرة، وباب مياسرة الإخوان وترك الخلاف عليهم، وباب مداراة الناس والتودّد إليهم، وباب مخالفة الناس بالأخلاق مع التمسك بالدين، وباب اكتساب الحمد، واجتناب المذمة وكراهة الشماتة. وباب الصبر عند النوازل والمزاري، وباب ترك الأسف على الفائت (انظر: ابن سلام، ١٩٨٠م: صص ١٥٠-١٦٣).

تعدّ الأخلاق في المنظور الإسلامي الهدف العام والأساس للبلوغ إلى الكمال، إذ يقول عليه الصلاة والسلام: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»(النويري،١٤٢٣هـ، ج١٨، ص٢٥٠). ذلك أن الدين الإسلامي كله خلق في صلة العبد بربه، وبنبيّه الأكرم صلى الله عليه وآله سلم، وجميع المخلوقات؛ ولذلك قال ابن القيم الجوزية: «الدين كله خلق»، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين (انظر: الحازمي، ١٤٢٤هـ: ص٥٠٧-٥٠٨).

ومن هذا المنطلق تتجلّى أهمية فهم مغزى مكارم الأخلاق؛ إذ إنها أصل في الحياة الإنسانية الإلهية وفيها تبرز الجوانب الناصعة من المفاهيم التربوية التي تمهد الطريق لاجتياز

مسيرة الكمال الشاسعة، وعليه فلا يمكن أن نغفلها ونكتفي ببصيص مفهومها الأوليّ الذي يتبادر منها عند إطلاقها، وإن كان التبادر له أساس من الصحة إلا أنه غير واف بالمطلوب منها، ومن هنا ينبغي دراسة دلالاتها عبر الأنساق اللغوية وكشف اللثام عن دلالاتها الغائرة من خلال الشواهد الشعرية والنثرية المختلفة في الجاهلية والإسلام لاستكناه معانيها الهامشية، وجوانبها الخفية.

٦. دلالات مكارم الأخلاق في العصر الجاهلي:-

كان الشعر العربي منذ بداية ظهوره في الجاهلية حافلًا بمفاهيم سامية نابعة من نظرة إنسانية وخلقية تحرك العواطف إلى بعض السجايا النبيلة واستكراه الأوصاف الرذيلة، والنزوع إلى الفضيلة والنزوح عن المسبّة، وإن كان في شعرهم شيء من الغلظة يستوحى من الأشعار الحماسية، خصوصًا عند الثارات واشتداد النفار واحتدام القتال إلا أن هناك نصوصًا تمثّل النزعة الإنسانية؛ إذ تحثّ المرء على إكرام الضيف والجار وإغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم والشجاعة والحمية والوفاء بالعهود والذمم وغيرها من الصفات الحسنة التي أكدّت عليها فيما بعد الشريعة الإسلامية في القرآن والروايات المأثورة، ودعّت الناس إلى الاتصّاف بها والتحلّي بمحاسنها.

٦ . ١. دلالاتها في الشعر الجاهلي:-

وممّا ورد في الشعر الجاهلي يستحثّ على مكارم الأخلاق قول لبيد العامري يدعو إلى قطع الحوائج عن الصديق لئلا يثقله عبؤها ويفسد ذلك ما بينهما، واستبقاء من يظهر المودّة ظاهرًا بالعطاء، والاجتناب عن

الإسراع في قطيعتها وإن كانت القطيعة واضحة في أفعاله:

فاقطَعْ لبانةَ مَن تعرَّضَ وَصلُهُ

ولَخيرُ واصلِ خُلَّةٍ صَرَّامُها

واحْبُ المجاملَ بالجزيلِ وصَرمُهُ

باقٍ إذا ضَلَعتْ وزاغَ قِوامُها

(العامري، د.ت، صص١٦٧-١٦٨).

الشاهد ههنا وإن لم يظهر على السياق اللغوي ملموسًا إلا أن المفهوم من البيتين ينمّ على خصلة جميلة في صون الصداقة من الزوال والقطيعة وتحمّل من يتظاهر بالمودّة والقطيعةُ بادية في تصرفاته، ولكن الشاعر يستحث المخاطب على الصفح عنه لعله يعود إلى توثيق الصداقة بالمودّة إليه، وكما أشرنا في البحث اللغوي عن الكرم فإنه في معناه الواسع يعني الصفح، ومن هذا المنطلق تتضّح دلالة الكرم في الأخلاق عبر محور المبادلة (قطع الحاجة= التحمل= الوصل= الصداقة)؛ إذ إنّ من يصفح عن صديقه عند قطيعته له ويتحمله، فذلك من كرم أخلاقه. وعلى محور المجاورة تقع المفردات على التقابل لأداء المفهوم (اقطع≠وصله) وفي المصراع الثاني(واصل≠صرامها)، وكذلك في المصراع الثاني من البيت الثاني (باق≠ضلعت، وزاغ).

ومنه القول المنسوب إلى حاتم الطائي؛ إذ يخاطب زوجته ويعاتبها قائلا:

وكيفَ يُسيغُ المرءُ زادًا وجارُهُ

خفيفُ المِعى بادي الخَصاصةِ والجَهْدِ

ولَلموتُ خيرٌ مِن زيارةِ باخِلٍ

يُلاحظُ أَطرافَ الأَكيلِ على عَمدِ

(البغدادي،١٤١٧هـ.ق:ج٢،ص١٨٤).

يتعجّب الشاعر عبر توظيف «كيف» من الذي يشبع من زاده وجاره جائع تظهر عليه ملامح التعاسة

والمرارة، وإنه يفضّل الموت على لقاء شحيح ينظر في وجه الجليس المؤاكل متعمّدًا لخسّته ودناءته.

ويظهر واضحًا أنّ إكرام الجار وإطعام الطعام من مصاديق مكارم الأخلاق، وأسماهما مكانة عند العرب في الجاهلية؛ فالشاعر عبر محور المبادلة يريد أنه لا يحسن بالمرء أن يتلذّذ بزاده وجاره يتضوّر جوعًا؛ كما أنه يذمّ الدناءة التي يحملها الباخل في استدامة نظراته البلهاء حين يؤاكله جليس على مائدة؛ وإنه على محور المبادلة يريد الإشارة إلى مفهوم الكرم في الضيافة عبر التضاد القائم بين لفظتي (الباخل≠الكريم)؛ وذلك واضح إذ يقول: «وللموت خير .. »، لاسيما أنه أتى بلام الابتداء والجملة الاسمية توكيدًا على ما يروم إليه من توطيد مفهوم مكارم الأخلاق، وإنكارًا لاتخاذ مذمة البخل سلوكًا في الحياة، وأما على محور التجاور، فالكلمات منصبة في قالب محدّد من أجل مفهوم واقعيّ يدركه الشاعر بملء مشاعره حبًّا للتراث الإنساني والثقافي والأصالة التي يحملها في نفسه السمحة؛ وذلك حين استعمل مفردات مثل: (كيفَ، يُسيغُ، زادًا، جارُهُ، خفيفُ المِعى..)؛ وكأن الإنسان ينبغي ألّا يشعر براحة حتى يقوم بواجبه تجاه جاره. كما عليه أن يصدف عن البخل الذي يجرّ به إلى حضيض الدناءة.

ومنه قول السموأل بن عاديا في قصيدته اللامية العصماء إذ يحثّ الإنسان على العزّ وكرم النفس والابتعاد عن اللؤم بقوله:

إذا المرءُ لم يَدنَسْ منَ اللُّؤمِ عِرضُهُ
فكلُّ رداءٍ يَرتديهِ جَميلُ

وإنْ هوَ لمْ يحَمِلْ على النَّفسِ ضَيمَها
فَليسَ إلى حُسنِ الثَّناءِ سَبيلُ

(ابن عبدربه، ١٤٠٤هـ.ق:ج٦، ص٢٠٦).

أشار الشاعر إلى خصلة من المكارم عبر سياق النفي لقوله «لم يدنس من اللؤم عرضه»: دلالةً على الشرف والرفعة على أساس محور المبادلة، والنتيجة أنّ كفّ النفس عن اللؤم هو في الحقيقة يحكي عن صحة كل فعل يصدر من الإنسان، وذلك يبدو في المفهوم الإمكاني، من قوله: «فكل رداء» لأنّ الرداء استعارة تصريحية عن الفعل، ويلاحظ أنّ لفظ اللؤم على محور المبادلة يدلّ على الخسة والدناءة والانحطاط وكل ما ينال من شرف الإنسان، ويلاحظ على محور التجاور الطباق المفهومي بين (يدنس≠الجميل) والكلمات المنصبة في قالب واحد من جهة الحقل الدلالي، مثل: (يَدنَسْ، اللُّؤمِ، عِرضُهُ، رداءٍ، يَرتديهِ، جَميلُ)؛ إذ إن مراعاة النظير بينها ساعدت على إدراك المفهوم الواسع للبيت.

ونقل عن البيت الأخير بأنه «قد اشتمل على مكارم الأخلاق جميعها، من سماحة وشجاعة، وعفة، وتواضع، وحلم، وصبر، وغير ذلك، فإن هذه الأخلاق كلها من ضيم النفس؛ لأنها تجد بحملها ضيمًا، أي مشقة وعناء» (ابن الأثير، (دـ.ت): ج٢، ص٢٧٤. العلوي، ١٤٢٣هـ.ق: ج٢، ص٧٠). ويظهر ممّا سبق أن تحمل المشاق والمصاعب يدفع الإنسان إلى كسب مكارم الأخلاق ويجلب حسن الثناء له، فتحمّل نقصان المال يفضي إلى السماحة، وتجشّم ضراوة القتال يدعو إلى الشجاعة، وكسر الغرور يؤدي إلى التواضع وهكذا سائر المكارم، وعليه فإنّ تحمل الأذى في سبيل المجد

يتسّع نطاقه في المواضيع المختلفة وهو ينخرط ضمن الإطار المعجمي الواسع كما يبدو من فحوى كلام ابن الأثير والعلوي أيضًا. وقد أدّى قوله المقيد بالشرط في المصراع الأول دورًا بارزًا على محور التجاور للدلالة على ما أشرنا إليه.

ويعدّ عنترة بن شداد شرب الخمرة سببًا في العطاء الجزيل إذ يقول:

فَإِذَا شَرِبْتُ فإِنَّنِي مُسْتَهْلِكٌ
مَالِي وَعِرْضِي وَافِرٌ لَمْ يُكْلَمِ
وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أُقَصِّرُ عَنْ نَدَىً
وَكَمَا عَلِمْتِ شَمَائِلِي وَتَكَرُّمِي

(العسكري،١٤١٩هـ.ق:ج١،ص٤٣٣).

يتضّح مدلول كلمة «مستهلك» صرفيّا على محور التجاور بأن الشاعر يفني ماله عند العطاء فلم يبقِ منه شيئا، والباعث عليه شربه الخمر فهو يحفزه على المكارم، وهذه الفكرة كانت سائدة عند العرب في الجاهلية، فكانوا يرونها مشجعة القلب عند المعركة والمسببة للكرم الوافر،وهذا المعنى يدلّ على المفهوم الضيق للكرم عندهم، وعليه قول الشاعر:

أراحتْ منَ الهمِّ الدَّخيلِ وشَجَّعتْ
جَنانًا وسَنَّتْ للبخيلِ التّكرُّما

(ابن حيوس، ١٩٨٤م: ج٢، ص٥٩٩).

ولا شكّ أن هذه الفكرة مرفوضة بتاتًا في الإسلام، وإن كانت داعية للكرم والشجاعة الممدوحين؛ لأن زوال العقل يوجب مفسدة كبرى لا تعوض بما ينقل عنها، ومن اللطيف في شعر عنترة أنّه وصف نفسه بالكرم في حالتي السكر والصحو؛ حتى لا يعيّر بالبخل؛ وعليه قول زهير:

أخي ثقةٍ لا تُتلفُ الخَمرُ مالهُ
ولكنَّهُ قد يُهلكُ المالَ نائلُهْ

(ابن أبي سلمى، ١٩٨٨م: ص٩١).

إذ أراد الشاعر وصف ممدوحه بأنه مجبول على الكرم فلم يكن عطاؤه تصنّعًا لشربه الخمر وزوال عقله.

كما أنّ المفهوم الضيق واضح في قول عامر بن الطفيل:

قَتلنا منهمُ مئةً بِشيخٍ
وصَفَّدناهمُ عُصَبًا قياما

(ابن الطفيل، ١٩٧٩م: ص١١٢).

يظهر جليًّا بأنه يفتخر بمقتلة كبرى مقابل قتل شيخ ثأرًا، ويعدّ ذلك مكرمة لقومه، وصيتًا يدوّي بين أحياء العرب، وقد أنكر الإسلام الحمية الجاهلية والنعرات القبلية التي تروح ضحيتها آلاف النفوس بقتل رجل واحد كما حدث ذلك في حرب البسوس التي طالت أربعة عقود لمقتل كليب التغلبي على يد الجساس بن مرة البكري، والقصة مشهورة.

٦ .٢. دلالاتها في النثر الجاهلي:-

وممّا ورد من النثر في كلام القدماء، وإن كانت دائرته في مقام الاستعمال أقلّ بكثير من الشعر إلا أن هناك نُتفًا منه قد بثّت في مطاوي الكتب الأدبية، منها: قصة حاتم الأصم؛ إذ كلّمته امرأة في حاجة لها فضرطت، فقال لها: «ارفعي صوتك فإنّي أصمّ، فسرّي عنها، وكان هذا سببه تلقيبه بالأصمّ» (الخفاجي المصري، ١٩٩٦م: ص٣٧٥).

هنا يلوّح النصّ أيضًا إلى كرم الأخلاق في تصرّف حاتم الأصم؛ إذ إنّه وصف نفسه بعاهة الصمم؛ ليصون ماء وجه المرأة، وقد أبدى التغافل عن سقطات الناس في أسلوب لطيف ولفظ طريف، وذلك ممّا يعدّ من خصائص أهل الظرف والأدب، وقد وظّف حاتم هذا المفهوم السامي

بقوله: «ارفعي صوتك»، ومدلوله على محور المبادلة أنه ما سمع صوتًا منها، ليثبت صفة ممدوحة لنفسه، لاسيّما أنه أخبر عن عاهة في سمعه لم تكن فيه، وما ذلك إلا إيثار منه يدلّ على كرمه ورفيع أخلاقه حتى لُقّب لذلك بالأصمّ؛ إذ إنّ ظاهره ذم وباطنه مدح، وكأنه أريد منه، الأصم من كل الهنات والسقطات، وعلى محور التجاور استعمل مفردات (ارفعي، الأصم، سري)، لتؤدي دورها في السياق، وترشد المتلقي إلى استكناه مفهوم الإمكاني للإيثار والتسامح.

وممّا ورد في ذكر مكارم الأخلاق هو قول بعض الأعراب: «قدم علينا الحكم بن المخزومي ولا مال لنا، فأغنانا عن آخرنا، فقلت له: كيف؟ فقال: علمنا مكارم الأخلاق فعاد أغنياؤنا على فقرائنا فصرنا كلنا أجوادا.وكان عبد الله بن العباس يسمّى معلم الجود لسخائه وحثّه على ذلك قولا وفعلا» (راغب الإصفهاني، ١٤٢٠ق: ج١، ص٦٧١).

يلاحظ عبر محور المجاورة كيف وقعت كلمات من حقل دلالي واحد، وهي (لا مال، أغنانا، مكارم، الأخلاق، أغنياؤنا، فقرائنا، و أجوادا) وثنائية المقابلة فيما بينها؛ لتبيين حقيقة مكارم الأخلاق عند الأعراب ومفهومها الإمكاني المتبادر من قوله: «علّمنا مكارم الأخلاق»؛ إذ يستوحى منه أنّ المخزومي قام بتثقيفهم وحثّهم على المواساة والمساواة بين أفرادهم حتى يهب الغني من ماله فيستغني الفقير به، ويستنّ المستغني بنهجه فلا يدّخر لنفسه مالًا بل يغني به الآخر حتى يصبح جميعهم أغنياء، وأما على محور المبادلة فمكارم الأخلاق تدلّ

على (المواساة، والعطاء، والتضحية، والحثّ على الإنسانية وغيرها).

وأيضًا ورد على هذا الصعيد، قول الأصمعي لبعض الأعراب: «ما تعرفون من مكارم الأخلاق؟ قال: تضيء نارنا للضيف ولا تنبح كلابنا، ونقريه وجوهنا قبل طعامنا. قال الفرزدق:

وإنّي سفيهُ النّارِ للمُبتغي القِرى

وإنّي حليمُ الكلبِ للضَّيفِ يطرقُ

فجمع بين سفه النار وهو فرط التهابها وحلم الكلب، وذلك بديع» (المصدر نفسه، ١٤٢٠ق، ج١، ص٧٥٥).

يظهر عبر سياق الكلام ومحور المجاورة أنّ هناك علامات بارزة يستوحى منها المفهوم الإمكاني؛ إذ إنّ «إضاءة النار» فهو مفهوم كنائي يدلّ عبر محور المبادلة على كرم الاستضافة، وأنّ نارهم تتأجج لقراهم، وقولهم: في سياق النفي «لا تنبح كلابنا» أيضا مفهوم كنائي يدلّ على محور المبادلة على كرم صاحبه؛ إذ إنّ الكلاب اعتادت على طروق الضيوف فلا تنبح عند مجيئهم، وأخيرا يريد من قوله: «نقريه وجوهنا..» عن بشاشة وجوههم قبل إطعام ضيوفهم، فالكرم متأصّل فيهم ولم يكن عن تطبّع، ومثله ما ورد عن الأصمعي؛ إذ قال: «سألت عنبسة بن وهب الدارمي عن مكارم الأخلاق، فقال: أما سمعت قول عاصم بن وائل المنقري:

وإنّا لَنُقري الضَّيف قبل نزولِهِ

ونُشبعُهُ بالبِشرِ مِن وجهِ ضاحكِ»

(ابن حمدون، ١٤١٧هـ، ج٢، ص٢٢٨. الأبشيهي، ١٤١٩ق: ص١٩٢).

ويظهر ممّا سبق أنّ مكارم الأخلاق ههنا على محور المبادلة ترادف

(الكرم، والأصالة وحسن السلوك والعشرة).

وممّا يدلّ على مكارم الأخلاق والحثّ عليها، قول الأشعث بن قيس لقومه: «إنما أنا رجل منكم ليس لي فضل عليكم ولكني أبسط لكم وجهي، وأبذل لكم مالي، وأحفظ حريمكم، وأقضي حقوقكم، وأعود مريضكم، وأشيع جنائزكم، فمن فعل مثل هذا فهو مثلي، ومن زاد عليه فهو خير مني ومن قصر عنه فأنا خير منه، قيل له: وما هذا، قال: أحضّكم على مكارم الأخلاق» (الوطواط، ٢٠٠٨م: ص٢٦).

هناك تظهر على محور التجاور كلمات جلّها تدلّ على المفهوم الواقعي، فعلى محور المبادلة قوله: «ليس لي فضل» يدلّ على التواضع، و«أبذل لكم مالي» على الكرم، «أحفظ حريمكم»، على حرمة الجوار والغيرة، و«أقضي حقوقكم»، على العدالة والمسؤولية، و«أعود مريضكم وأشيع جنائزكم» على المواساة والإنسانية، و«فمن فعل مثل هذا فهو مثلي إلى آخره» على الإنصاف، وقوله: «أحضكم» أي أريد تعليمكم وتشجيعكم وهذه أيضًا تعدّ من المكارم إلا قوله: «أبسط لكم وجهي» فإنه يدلّ على التعامل الحسن بالمفهوم الإمكاني.

ومن هنا يظهر أن مكارم الأخلاق على محور المبادلة هي: (الخلق الحسن أو الكرم أو الغيرة أو الحمية وحسن الجوار أو العدالة أو مراعاة الحقوق أو المواساة أو الإنصاف).

٧. دلالات مكارم الأخلاق في العصر الإسلامي:-

يقول الحازمي: «للغة العربية وعلومها آثار تربوية لاسيما إذا كان

متعلّمها له نصيب وافر من العلم الشرعي؛ إذ تكسبه فصاحة في الكلام، وبلاغة في البيان، وجمالًا في تركيب الكلام، وتعينه على إظهار ما استجاشت به نفسه من مشاعر مكارم الأخلاق وسمو النفس، فتكسبه ذوقاً لفظيًا، ونموًّا فكريًا، وفهمًا عميقًا، وعاطفة جيّاشة لما اكتسب من رقة الطبع، وحسن المشاعر» (الحازمي، ١٤٢٤هـ، ص ٤٦٤).

وذلك أن اللغة موطن إدراك المفاهيم التربوية وتمثّل الثقافة الإنسانية طوال القرون المتمادية؛ إذ إن الإنسان وُلد واللغة لا تفارقه فلا ضير أن يستعين بها في بيان مكنون خلده، وما يستحسن نطقه لشدّ القلوب وكبح العداوة ولا يستقيم البيان إلا بالإيمان والاعتقاد بحسن مكارم الأخلاق.

١.٧. دلالاتها في الشعر الإسلامي:-

لا شك أنّ العصر الإسلامي حافل بالنصوص الشعرية والنثرية التي تحثّ على التمسّك بمكارم الأخلاق ولها أصداء واسعة عند النبيّ وأئمّة الحق إذ اتسع نطاقها وازدادت مفاهيمها، ويلاحظ بأنّ الكثير منها في الجاهلية قد أقرّ بها الإسلام كالكرم، والوفاء، وإغاثة الملهوف، والشجاعة وغيرها، وبعض آخر لم يعدّها الإسلام من المكارم بتاتًا كشرب الخمر والثأر بالباطل وغيرهما، وسنأتي بشواهد من الشعر تدليلا على دلالاتها في العصر الإسلامي.

وممّا ورد على هذا الصعيد قول علي بن أبي طالب عليهما السلام:

إنَّ المكارمَ أَخلاقٌ مُطهَّرةٌ
فالدِّينُ أوَّلُها والعقلُ ثانيها
والعلمُ ثالثُها والحلمُ رابعُها
والجودُ خامسُها والعُرفُ سادِيها

والبِرُّ سابعها والصَّبر ثامنُها
والشُّكرُ تاسعُها واللِّينُ عاشِيها
(الأبشيهي، ١٤١٩ق: ص٢٢).

يرى عليّ عليه السلام مكارم الأخلاق في عشر على الترتيب، هي: الدين، والعقل، والعلم، والحلم، والجود، والعرف وهو المعروف، والبرّ، والصبر، والشكر، وأخيرًا اللين. فهي بالمفهوم الدلالي على أساس محور التجاور تدلّ على المفهوم المعجمي الواسع للكلمة، ويظهر ممّا سبق أنّ الدين أولاها وأعلاها رتبة؛ إذ يبدو أنّ هذه العشر تقع طولًا لا عرضًا إذ عدّدها الإمام وجعل الدين فيها أوّلًا، ويتضّح ممّا سبق بأنّ مكارم الأخلاق المتمثّلة في هذه الخصال تظهر على محور المبادلة على نحو الآتي «التهذيب والطاعة والتقوى (الدين≠العصيان)، الدراية والفهم والتأمل (العقل≠البلاهة واللوثة والجنون)، الرّقي والفضل والهداية (العلم≠الجهل)، الحكمة والأناة والصفح الجميل (الحلم≠الطيش)، والعطاء والإيثار والمواساة (الجود≠البخل)، المعروف والإنسانية والرحمة وغيرها، (العُرف≠النُّكر)، والإحسان والاحترام والطاعة (البرّ≠العقوق)، تحمل الأذى والتغاضي، والرضا (الصبر≠الجزع)، الثناء، والردّ الجميل، وعرفان الإحسان (الشكر≠كفر النعمة)، سجاحة الخلق، اللطف، الخفض (اللين≠ الخشونة)، كما أنّ بأضدادها تعرّف مداليلها المعجمية واضحة.

وممّا يدلّ على مكارم الأخلاق قول إسحاق الخريمي يصّف سجاحة خلقه وبشاشة وجهه عند الاستضافة:

أُضاحكُ ضيفي قبلَ أنْ أُنزلَ رحلَهُ
ويَخصبُ عندي والمحلُّ جَديبُ

وما الخَصبُ للأَضيافِ أنْ تُكثرَ القِرى
ولكنَّما وجهُ الكريمِ خَصيبُ

(المصدر نفسه، ١٤١٩هـ: ص١٩٢).

أتى الشاعر بثلاث خصال من المكارم على محور المجاورة كما مضى بعضها في الأبيات السابقة، تدلّ بالمفهوم الإمكاني على العرف واللين؛ إذ يقول:« أُضاحكُ ضيفي.. أنزل رحله»، وكذلك قوله: «وجهُ الكريمِ خَصيبُ»، وعلى الإيثار في المصراع الثاني قوله: «ويَخصبُ عندي والمحلُّ جَديبُ»؛ إذ المضياف معدم إلا أنه يجود بما لديه على ضيفه، وأما على محور المبادلة فواضح، وهي (الإكرام واللطف، وحسن الخلق، والعطاء من دون منة، وغيرها).

٧. ٢. دلالاتها في النثر الإسلامي:-

وممّا ورد في الكتب الأدبية وبعض السير على هذا الصعيد من النثر الإسلامي نصوص شتّى تحاكي المفاهيم السامية في الشعر الإسلامي في دلالات مكارم الأخلاق المختلفة ويتميّز النثر عنه بوضوح دلالاته والتصريح عن مكنونها بأدنى تأمّل، وذلك يعود إلى طبيعة اللغة النثرية وقربها من الأفهام.

٧. ٢. ١. القرآن الكريم:-

ذكر الله جلّ جلاله لرسوله الأكرم عليه أفضل الصلاة والسلام الصفات الأخلاقية النبيلة بعبارة فيها جمالية إيجاز القصر إذ تضمّ المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة؛ إذ يقول: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف ٧: ١٩٩).

فعلى محور التجاور هناك مفهوم واسع لهذه المفردات التي تحمل شحنة عاطفية ثرّة ومعاني سامية يمكن

استخلاصها على ما يأتي: «عفو من قطعه، والصفح عمّن ظلمه؛ وفي الأمر بالمعروف تقوى الله، وغضّ الطّرف عن المحارم، وصون اللسان عن الكذب، وفي الإعراض عن الجاهلين تنزيه النفس عن مماراة السفيه ومنازعة اللجوج.» (ابن عبد ربة، ١٤٠٤ هـ.ق: ج٢، ص٢٥٥).

ثم أمره تبارك وتعالى فيما أدبه، باللين في عريكته، والرّفق بأمته، وعليه يظهر أنّ هذه الصفات الحسنة أضدادها على الترتيب على أساس المفهوم الواسع: أخذ العفو≠القطيعة والكراهية، الحقد والقساوة، والأمر بالعرف وهو المعروف≠ العصيان، والهوس، والكذب والتهمة، وغيرها، الإعراض عن الجهلة≠ الإنحراف الأخلاقي، والنزوع إلى الدنايا وكثرة السقطات والزلات وغيرها.

يلاحظ هناك معان معرفية وخلقية جدّ واسعة تحملها الكلمات لا يمكن استقصاؤها إلا بعد الوقوف على الآثار المحتملة في عدم الالتزام بها على أرض الواقع في المجتمع الإنساني الذي يحتاج إلى مبادئ أصيلة لتكوين هويّته.

وممّا ورد في الكتاب قوله تعالى:﴿وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء١٧: ٢٤)، يلاحظ أن هناك مفهوما إمكانيا يستدعيه السياق في قوله: «واخفض جناحك» وذلك استعانة بالاستعارة المكنية؛ إذ استعير الضمير للمستعار منه المحذوف وهو الطائر وأشير إلى شيء من لوازمه وهو خفض الجناح تدليلا على مفهوم الرحمة والمحبّة واللطف≠الغلظة والعنجهية والخشونة، فقد علّم الله أهل الإيمان

كيف يتعاشروا فيما بينهم، ولو تعايشوا على الغضاضة والنزاع والقساوة لما استقر أمرهم ولا قامت لهم قائمة، ومن هذا المنطلق قال سبحانه: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾(آل عمران٣ :١٥٩)، فبالمفهوم الإمكاني «غليظ القلب» كناية عن القسوة≠الرحمة ويدعمه السياق اللغوي؛ إذ يقول: «لو كنت فظّا»، وجواب لو الامتناعية واضح «لانفضوا من حولك»؛ فإن طبيعة البشرية تنفر من الطباع الخشنة.

وقال تبارك وتعالى ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ، وَما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصلت٤١ :٣٤-٣٥). (انظر العسكري، ١٤١٩هـ.ق: ص١٧٧. ابن الأثير، د.ت، ج٢، صص٢١٥-٢١٦. الطبرسي، ١٩٩٥م : ج٩، صص٢٣-٢٤).

يريد الله جلّ وعلا من الحسنة كل صفات الخير، والسيئة على نقيضها؛ إذاً تدلّ المفردتان على المفهوم الواسع، وقوله: (إدفع بالتي هي أحسن) تفسر وتوسّع صدر الآية أي أبعد عن نفسك بكل صفة محمودة حقة صفةً مذمومة باطلة حتى قال: (فإذا الذي ..كأنه ولي حميم) أي فمن تحلّى بالحالة المذكورة وردع أعداءه بلين ومحبّة ومداراة فقد صنع منهم لنفسه أولياء قرباء في الدين والنسب. ولا يؤتاها إلا من صبر واستقام على المنهج اللاحبّ الصحيح. وعليه فإن الحسنة على أساس محور التجاور والقرائن المحفوفة بالنص تدلّ على اللّين والرفق والصبر وعلى الشدة، كظم الغيظ، والحلم والتدبير،

ومن هذا المنطلق تتضّح النسبة المنطقية بين الحسنة ≠ السيئة.

٧. ٢. ٢. الأحاديث والأخبار:-

وممّا ورد في كتب السير والأخبار: «لما أُتي بسبايا طيّ، وقفت جارية ..، فقالت: يا محمد إن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب، فإنّي ابنة سيّد قومي، وإنَّ أبي كان يفكّ العاني، ويشبع الجائع، ويكسو العاري، ويفشي السلام، ولم يردّ طالب حاجة قطّ، أنا ابنة حاتم الطائي! فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يا جارية! هذه صفة المؤمن، ولو كان أبوك مسلمًا لترحمنا عليه، خلّوا عنها، فإنّ أباها كان يحبّ مكارم الأخلاق، والله يحبّ مكارم الأخلاق» (انظر: الترمذي، د.ت: ص٨٩. ابن حمدون، ١٤١٧هـ، ج٢، ص١٧٣. الوطواط، ٢٠٠٨م: ص٢٧).

تبدو الكلمات واضحة على محور التجاور؛ إذ إنها تدلّ على المفهوم المعجمي الواسع لمكارم الأخلاق فإنّ أباها كان يتسّم بصفات حسنة فإنه «يفكّ الأسير، ويستضيف الفقراء الجوّع، والبائسين العراة، وينشر الأمن والسلام، ويقضي الحوائج»، وعلى محور المبادلة، قوله: «يفكّ العاني» يدلّ على الرحمة والمنّة، وقوله: «يشبع الجائع، ويكسو العاري» على الكرم والإحسان، والمواساة والامتنان، وقوله: «يفشي السلام» على الطيب والاحترام، وقوله: «لم يردّ طالب حاجة قطّ»، على الجود وبالغ الرعاية، ومن هنا يتضّح أنّ مكارم الأخلاق على محور المبادلة بإيجاز، هي: (الرحمة والكرم والاحترام والرعاية)، ويلاحظ أن الدين محلّ عناية النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا يؤيد ما ورد

من الشعر عن عليّ عليه السلام؛ إذ قال أول مكارم الأخلاق هو الدين، ولو كان حاتم الطائي مؤمنًا لترحّم النبيّ عليه وقد جمع الخصال على وجهها الأتمّ، ولكنه مات ولم يسلم، وفيه من المكارم ما جعل النبيّ يطلق سراح ابنته وقومها.

وممّا ورد على هذا الصعيد: «أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآله وسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَإِنَّ مِنْ أَحَبِّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى سُرُورًا يَدْخُلُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ يَكْشِفُ عَنْ كَرْبِهِ أَوْ يَسُدُّ عَنْهُ جُوعًا، وَلأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ شَهْرَيْنِ فِي الْمَسْجِدِ، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ لأَمْضَاهُ مَلأَ اللهُ قَلْبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رِضًا، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخٍ لَهُ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يُثْبِتَهَا ثَبَّتَ اللهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الأَقْدَامُ، وَسُوءُ الْخُلُقِ يُفْسِدُ الْعَمَلَ كَمَا يُفْسِدُ الْخَلُّ الْعَسَلَ» (الجريرى، ٢٠٠٥م، ص١٧٢).

تظهر الكلمات واضحة مدلولاتها عميق مغزاها على محور التجاور؛ إذ إنّ بعضها تدلّ على المفهوم المعجمي الواسع لمكارم الأخلاق مثل «نفع الناس، وإدخال السرور، وكشف الكرب»، فعلى محور المبادلة، قوله: «..أنفعهم للناس» يدلّ على العطاء، والمساعدة، والتعاون وعدم الإضرار، وقوله: «..سرورا يدخل على مسلم»، يدلّ على كل أمر يفضي إلى السرور والبهجة من إسداء الخير إلى الآخرين، والتوّدد إليهم، والكلام المفرح وغيرها، وقوله: «..يكشف عن كربه» فالكرب هو الشدة وإنها تدلّ على محور المبادلة على إزالة الفقر، والإحسان،

والنجدة، والمواساة وغيرها، وهناك ألفاظ تنص على مفهومها الواقعي «سدّ الجوع، وكف الغضب، وكظم الغيظ عند القدرة، وقضاء الحاجة، وسوء الخلق≠حسن الخلق»، فتدلّ على محور المبادلة على الترتيب: «إطعام الجائع، وضبط النفس، والعفو والمساعدة وطيب الشّيم».

وتجدر الإشارة إلى أنّ هناك تفاوتًا لطيفًا في ما بين قضاء الحاجة في السطر الثالث «وَلأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ» وبين الأخير «وَمَنْ مَشَى.. حَتَّى يُثْبِتَهَا»، وهو أنّ الأول يراد منه مطلق السعي وراء قضاء حاجة الناس سواء حصل المطلوب أم لم يحصل، وأما الثانية فيراد منها إنجاز الحاجة إثر المتابعة الحثيثة، فلا يتخلّى عنها حتى يقضيها. وعليه ما روي عن علي عليه السلام أنه قال يومًا: «.. عجبًا لرجل يجيئه أخوه المسلم في حاجة، فلا يرى نفسه للخير أهلًا! فلو كان لا يرجو ثوابًا، ولا يخاف عقابًا، لكان ينبغي أن يسارع إلى مكارم الأخلاق، فإنها تدلّ على سبيل النجاح!» (ابن كثير، ١٩٧٦م: ١٠٨). السعي وراء حاجة المسلم يعدّ من مصاديق مكارم الأخلاق بل أفضلها إطلاقًا لشمولها لعديد من السجايا النبيلة.

وممّا ينص على أن حسن الخلق من المكارم قول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لأبي بردة: «يَا أَبَا بردة لَا يدْخل الْجَنَّة أحد إِلَّا بِحسن الْخلق» (الترمذي، د.ت: ص٩٠).

يبدو ممّا سبق أنّ دخول الجنة مقصور على التمتّع بحسن الخلق، وهو من القصر الإضافي، ويدلّ السياق على بالغ أهميته؛ إذ جعل الرسول حسن الخلق الوجه الأتمّ لمكارم الأخلاق.

وأخيرا ما ورد في الأخبار، قال أبو الفرج بن الجوزي: «تقدّمت امرأة فادّعى وليّها على زوجها خمسمائة دينار مهرًا فأنكر، فقال القاضي: شهودك، قال: قد أحضرتهم، فاستدعى بعض الشهود أن ينظر إلى المرأة ليشير إليها في شهادته، فقام الشاهد، وقال للمرأة: قومي، فقال الزوج: تفعلون ماذا؟ قال الوكيل: ينظرون إلى امرأتك وهي مسفرة لتصحّ عندهم معرفتها، فقال الزوج: فإني أشهد القاضي أنّ لها عليّ هذا المهر الذي تدّعيه ولا تسفر عن وجهها، فقالت المرأة: فإني أشهد القاضي أنّي قد وهبت له هذا المهر، وأبرأته منه في الدنيا والآخرة، فقال القاضي: يكتب هذا في مكارم الأخلاق» (النويري،١٤٢٣ه، ج٢٢، ص٣٥٦).

يظهر من خلال السياق أنّ مفاهيم الغيرة والإيثار والوفاء والهبة اجتمعت كلها في هذا الخبر، إذ إن الرجل أبى أن ينظر الشهود إلى وجه حليلته، وقول الوكيل على محور التجاور: «..وهي مسفرة» علامة بارزة تنم على المفهوم الإمكاني لها، إذ يستوحى منها ما يمسّ الغيرة على محور المبادلة، وقوله: «أنّ لها عليّ هذا المهر» يدلّ أيضا على المفهوم الإمكاني لإيثاره وإسقاط حقّه، وقول الزوجة عبر محور التجاور وقرائن الأحوال: «أنّي قد وهبت له هذا المهر، وأبرأته منه..» يدلّ على الردّ الجميل، والوفاء، والهبة. وعليه قول القاضي، إذ قال: «أن ما دار بينهما يعدّ من مكارم الأخلاق».

نتائج البحث

وقد توصلت الدراسة إلى أنّ

الأخلاق عند اللغويين كالزبيدي وابن فارس لا تتوقف على معنى أو سمة خلقية محدّدة بل تتميّز بمفهومها المعجمي الواسع الذي يضمّ معان كثيرة مستوحاة منها عبر سياق النصوص والقرائن المحفوفة بها.

وعليه فإن الاستعانة بمحوري المجاورة والمبادلة، والمقابلات الثنائية، ومعرفة أضداد مداليل المفردات المعجمية التي تنص على مكارم الأخلاق تمكّننا من استكناه معانٍ هامشية، فتساعد المتلقي على فهم دلالاتها الخفية.

وإنّ «مكارم الأخلاق» في الشعر الجاهلي تدلّ على عدة مفاهيم، أبرزها المفاهيم الواقعية، كإكرام الجار والصفح عمّن يظهر القطيعة، والمفاهيم المعجمية الواسعة، كتحمل المشاق والمصاعب، والمفاهيم الضيقة التي أنكرها الإسلام، كشرب الخمرة، والحمية الجاهلية في الثأر.

كما إنها في النثر الجاهلي تدلّ على المفاهيم الإمكانية، كالتغافل عن هفوات الناس بأسلوب لطيف، والمواساة، والحث على الإنسانية، والكرم وبشاشة الوجه قبل إطعام الضيف، وعلى المفهوم الواقعي أبرزها: الغيرة والعدالة ومراعاة الحقوق والإنصاف. وفي الشعر الإسلامي تدلّ على المفاهيم الإمكانية أبرزها: الدين، والعقل، والعلم، والحلم، والشكر، العرف واللين. ودلالاتها في النثر الإسلامي يتجلّى في القرآن عبر المفاهيم المعجمية الواسعة وهي: التسامح والأمر بالمعروف والابتعاد عن الجهلة، وعلى المفهوم الإمكاني كالرحمة والمحبّة. وتدلّ في الأخبار والسير على المفاهيم المعجمية الواسعة كالاحترام والرعاية وإدخال السرور،

وكشف الكرب والسعي وراء حاجة المسلم، وعلى المفهوم الإمكاني كالمروءة والوفاء. وأخيرا تبيّن خلال النماذج التي تناولها البحث أنّ المفهوم المعجمي الواسع يحتّل المكانة الأولى بين الدلالات الأربع في تبيين مداليل «مكارم الأخلاق» عبر العصرين الجاهلي والإسلامي، ويليه في الرتبة الثانية المفهوم الإمكاني ثم الواقعي، وأخيرًا المفهوم الضيق.

المصادر والمراجع :-

*القرآن الكريم.

١- الأبشيهي، شهاب الدين محمد. (١٤١٩هـ ق). المستطرف في كل فن مستطرف، الطبعة: الأولى. بيروت: عالم الكتب.

٢- ابن أبي سلمى، زهير. (١٤٠٨هـ ق -١٩٨٨م). ديوان زهير ابن أبي سلمى، شرح: علي حسن فاعور. الطبعة: الأولى. بيروت: دار الكتب العلمية.

٣- ابن الأثير، ضياء الدين. (د.ت). المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، مصر: دار نهضة للطباعة والنشر والتوزيع.

٤- ابن الرومي علي بن العباس بن جريح. (١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م)، ديوان ابن الرومي، شرح: أحمد حسن بسج، الطبعة: الثالثة، بيروت: دار الكتب العلمية.

٥- ابن الطفيل، عامر. (١٣٩٩هـ ق-١٩٧٩م). ديوان عامر بن الطفيل، رواية: محمد بن القاسم الأنباري، بيروت: دار صادر.

٦- ابن حيوس، محمد بن سلطان. (١٤٠٤هـ ق- ١٩٨٤م). ديوان ابن حيّوس، تحقيق: خليل مردم بيك، بيروت: دار الصادر.

٧- ابن سلّام، القاسم بن عبدالله. (١٤٠٠هـق-١٩٨٠م). الأمثال، المحقق: عبدالمجيد قطامش، الطبعة: الأولى. الناشر: دار المأمون.

٨- ابن فارس، أحمد بن زكرياء. (١٣٩٩هـ ق -١٩٧٩م). معجم مقاييس اللغة، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر.

٩- ابن كثير، إسماعيل بن عمر. (١٣٩٥ هـ ق- ١٩٧٦م) السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، بيروت: دار المعرفة.

١١- ابن منظور الأنصاري، محمد بن مكرم. (١٤١٤هـ. ق). لسان العرب، الطبعة: الثالثة. بيروت: دار صادر.

١٢- الأحمر، فيصل. (١٤٣١ هـ ق-٢٠١٠م). معجم السيميائيات، الطبعة الأولى. بيروت: الدار العربية للعلوم.

١٣- الأصفهاني، الراغب الحسين. (١٤٢٠هـ.ق). محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، الطبعة: الأولى. بيروت: شركة دار الأرقم.

١٤- الأعشى الكبير، ميمون بن قيس(د.ت). ديوان الأعشى الكبير ، تحقيق: محمد حسن، مكتبة الآداب، المطبعة النموذجية.

١٥- امْرُؤُ القَيْس بن حجر بن الحارث الكندي. (١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م)، ديوان امرِئ القيس، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي الطبعة: الثانية، الناشر: دار المعرفة-بيروت.

١٦- أنيس، إبراهيم. (١٩٨٤م). دلالة الألفاظ، الطبعة الخامسة. مصر: مكتبة الأنجلو المصرية.

١٧- البغدادي، محمد بن الحسن.(١٤١٧هـ ق). التذكرة الحمدونية، الطبعة: الأولى. بيروت: دار صادر.

١٨- الترمذي، محمد بن علي. (د.ت). الأمثال من الكتاب والسنة، المحقق: السيد الجميلي، بيروت-دمشق: دار ابن زيدون - دار أسامة.

١٩- الجريري، المعافى بن زكريا. (١٤٢٦هـ ق - ٢٠٠٥ هـ م). الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، المحقق: عبدالكريم الجندي، الطبعة: الأولى. بيروت: دار الكتب العلمية.

٢٠- الحازمي، خالد.(١٤٢٤هـ.ق). الآثار التربوية لدراسة اللغة العربية، الطبعة: العدد (١٢١). المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية.

٢١- الخفاجي، أحمد. (١٤١٧هـ ق-١٩٩٦م). شرح درّة الغواصّ في أوهام الخواصّ، الطبعة: الأولى. بيروت: دار الجيل.

٢٢- الخمّاش، سالم سليمان. (١٤٢٨هـ.ق).

المعجم وعلم الدلالة، جدة: جامعة الملك عبدالعزيز، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية.

٢٣- الزَّبيدي، محمّد. (د.ت). تاج العروس من جواهر القاموس، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.

٢٤- الشيخ الطبرسي، فضل. (١٤١٥ هـ ق- ١٩٩٥م). تفسير مجمع البيان، تحقيق وتعليق: لجنة المحققين، الطبعة: الأولى. بيروت: مؤسسة الأعلمي.

٢٥- العامري، لبيد. (د.ت). ديوان لبيد العامري، بيروت: دار الصادر.

٢٦- عبد ربّه الأندلسي، شهاب الدين أحمد. (١٤٠٤هـ.ق). العقد الفريد، الطبعة: الأولى. بيروت: دار الكتب العلمية.

٢٧- العسكري، أبو هلال الحسن. (١٤١٩هـ ق) الصناعتين، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: المكتبة العنصرية.

٢٩- العلويّ، يحيى بن حمزة. (١٤٢٣هـ ق). الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، الطبعة: الأولى. بيروت: المكتبة العنصرية.

٣٠- الفرزدق، همام بن غالب. (١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م). ديوان الفرزدق، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية.

٣١- النويري، أحمد. (١٤٢٣هـ.ق). نهاية الأرب في فنون الأدب، الطبعة: الأولى. القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية.

٣١- الوطواط، برهان الدين محمد. (١٤٢٩هـ ق- ٢٠٠٨م). غرر الخصائص الواضحة، وغرر النقائض الفاضحة، ضبطه وصححه: ابراهيم شمس الدين، الطبعة: الأولى. بيروت: دار الكتب العلمية.

٣٢- يوسف، أحمد. (٢٠٠٥ هـ م -١٤٢٦هـ ق). السيميائيات الواصفة (المنطق السيميائي وجبر العلامات)، الطبعة الأولى. الناشر: الدار العربية للعلوم.